يوم البحر رجع

بقلم :علي الصمادي

أول مرة اختفى فيها البحر، ما حدا صدّق.
يعني كيف بحر يختفي؟
بس الصبح، الشمس طلعت على أرض ناشفة، مشقّقة، والمي راحت كأنها ما كانت؟

صرنا نتابع الأخبار من فوق سطوح بيوت إربد، مع إنو البحر بعيد، بس الدنيا كلها كانت تحكي.
صور من تونس، بيروت، والإسكندرية ...البحر مش موجود، والشط فاضي، والمراكب مقلوبة.

ستي "أم حازم "كانت واقفة عالشباك، تطلع على الشرق.

"همست" :أخذ منا الطفولة ...والوعود."

أنا وقتها ما فهمت شو قصدها ...بس بعدين كل إشي وضّح.

بعد أسبوع، الناس بطّلت تحكي عن البحر، وصارت ترجع لحياتها.
"بس فجأة، مجموعة الواتساب انفجرت بخبر" :مخبز أبو إيليا بوزع مناقيش ببلاش!"

نزلت أشوف، لقيت زلمة كبير بالعمر، واقف ورا الفرن، ابتسامته بتجنن.

"حكى لي" :أنا البحر ربّاني، طول عمري أكل من خيره ...هلّق دوري أطعِم الناس."

قعدت معه، بلّش يحكيلي عن حياته، عن جزيرة كان فيها، وكيف البحر زمان ما كان يفرّق بين جنسية وجنسية.

"قال" :كنا بس بشر، وكلنا أولاد هالبحر."

بعدها بأسبوعين، صار إشي غريب.
مو بالبحر ...فينا نحنا.

بنت فلسطينية اسمها نور، رسمت جرافيتي ضخم عالحيط بالحديقة.
موجة، بس مش مي ...كانت أيادي ناس، من كل دول البحر :سورية، مغربية، يونانية، لبنانية، أردنية، كلها ممدودة لبعض.

سمّتها "المتوسط اللي نسيناه".

صرنا كل يوم نروح هناك، واحد بعزف، والثاني بقرأ شعر، والثالث جايب قهوة.
والأحلى؟ دكتورة سميرة، اللي دايمًا مكشرة، صارت تلقي شعر لمحمود درويش بصوتها الجميل

بيوم من الأيام، شب ليبي من طرابلس قال جملة قد ما كانت بسيطة، إلا إنها رجّت المكان:

"ليش منضل نتعامل كأنو إحنا مش من نفس البحر؟"

سكتنا كلنا...
بس اليوم اللي بعده، شيف تونسي عمل طبخة للكل، مغربي عزف، سوري غنّى، وأنا حسّيت قلبي عم يدق بطريقة جديدة.

صرنا نضحك مع بعض، نبكي مع بعض، نحلم مع بعض.

مرق وقت، البحر لسا مش راجع.
بس حياتنا؟ تغيّرت.

صرنا نحكي لغات بعض، نطبخ أكلات بعض، نحفظ أغاني بعض.
صرنا بحر ...بس بحر من الناس، من الحب، من الحكي.

وبيوم، بعد سنة بالضبط، صحيت عريحة غريبة.

ريحة مي وملح ...البحر؟

ركضنا كلنا عالشارع، والناس بتصرخ:
"رجع !البحر رجع!"

بس الغريب ...ما حدا ركض عليه.

كلنا وقفنا مكانّا، نبتسم.

لأنو عرفنا ...البحر كان جواتنا طول الوقت.